

الدبلوماسية الروحية والدينية كدعامة للدبلوماسية الاقتصادية في سياسة

الجزائر الافريقية

Spiritual and religious diplomacy as a pillar of economic cooperation in
Algeria's African policy

صالح زياتي *

Salah ZIANI

جامعة باتنة 01، (الجزائر)، مخبر الأمن في المتوسط salah.ziani@univ-batna.dz

تاريخ النشر: 2023/06/30

تاريخ القبول: 2023/06/25

تاريخ الإرسال: 2023/03/02

Abstract :

This research deals with the problem of how soft diplomacy, especially spiritual diplomacy, can contribute to supporting the current Algerian approach towards Africa, which will allow Algeria to assume its roles as a regional power that has weight in the course of regional transformations and dynamics.

This importance of this research lies in the fact that it represents an effort through which the value of spiritual diplomacy is highlighted as an effective tool that can be activated to serve our national interests by the virtue of the spiritual legacy that links Algeria to its African neighborhood.

Keywords: Algeria's African relations, soft diplomacy, spiritual diplomacy, security, foreign intervention.

ملخص:

يعالج هذا البحث إشكالية فحواها كيف يمكن للدبلوماسية الناعمة وعلى رأسها الدبلوماسية الروحية ان تساهم في دعم المقاربة الجزائرية الحالية تجاه افريقيا وهو ما يسمح للجزائر أن تضطلع بأدوارها كقوة إقليمية لها وزنها في مجريات التحولات والديناميكيات الإقليمية. وتكمن أهمية البحث في كونه يمثل مسعى يتم من خلاله إبراز قيمة الدبلوماسية الروحية كأداة فعالة يمكن تفعيلها لخدمة مصالحنا الوطنية بحكم الإرث الروحي الذي يربط الجزائر بجوارها الافريقي.

الكلمات المفتاحية: العلاقات الجزائرية الافريقية، الدبلوماسية الناعمة، الدبلوماسية الروحية، الأمن، التدخل الأجنبي.

* المؤلف المرسل.

1. مقدمة

شهدت السنوات الأخيرة مزيدا من انفتاح الجزائر على الجوار الأفريقي والقارة السمراء ككل، انفتاحا مس العديد من الجوانب سيما الاقتصادية والمالية كالاستثمار والتبادل التجاري بعدما ظل لعقود مقتصرا على الجوانب السياسية ولأمنية بشكل خاص. وحتى الجوانب السياسية نفسها اقتصر التعاطي مع الشأن الأفريقي على المؤسسات الرسمية للدولة الجزائرية ولم يتم تفعيل الهياكل والمؤسسات غير الرسمية سيما في مجال العلاقات الدبلوماسية وهو المجال الذي أصبحت أهميته بالغة لمعظم الدول في الوقت الراهن.

إن الاختلالات الأمنية التي تشهدها دول الجوار الأفريقي حيث انتشار المجموعات المسلحة والتدخلات العسكرية الأجنبية يستدعي منا تبني استراتيجية أكثر تكاملا وشمولية للمساهمة في حلحلة المشكلات والأزمات والمخاطر التي تواجهها العديد من البلدان الأفريقية سيما المحاذية لبلدنا. فانتساع جغرافية الجزائر وهو ما نجم عنه انكشاف أمني واضح سمح ب بروز تهديدات متنوعة وحركية واضحة للجماعات الإرهابية، الهجرة غير الشرعية، الحركات الانفصالية، تجارة السلاح، تجارة البشر، التهريب، المخدرات، انتقال الأمراض والأوبئة وغيرها، كل ذلك يستدعي اعتماد مقاربة تكاملية أكثر براغماتية للتعاطي مع هكذا واقع. إن اعتماد هذه المقاربة يعد أكثر من ضرورة في ظل مؤشرات محبطة إضافية تتعلق بالأداء الاقتصادي المتواضع لمعظم البلدان المجاورة لنا، هذا إضافة لأوضاعها غير المستقرة التي تجعل من العديد من البلدان الأفريقية مناطق أكثر خضوعا للتدخل الأجنبي لحماية المصالح وممارسة مزيدا من النهب لثروات القارة وهذا ما يشكل خطرا إضافيا على أمننا الوطني برمته.

على ضوء ما سبق، يتعين على الجزائر التي تربطها علاقة عضوية مع بقية القارة أن تنتهج مقاربة أكثر فعالية وأكثر نشاطا في دائرتها الأفريقية سواء بهدف تحجيم الكثير من

الاحطار المحدقة بها بفعل التنافس الدولي على موارد القارة أو الانخراط في علاقات اقتصادية من خلال تنشيط دبلوماسيةيتها بما يخدم مصالحها سواء على المدى القريب او البعيد. فسياسة الستاتيكو التي طالما طبعت العلاقات الجزائرية الافريقية قد تجلب لها الكثير من المخاطر ولا أدل على ذلك التواجد الفرنسي العسكري الحالي في منطقة الساحل والذي يخفي في طياته مصالح اقتصادية واضحة. في ظل كل تلك التهديدات والمخاطر يكون من المنطقي ان نفتح ليس فقط اقتصاديا بل وديبلوماسيةيا وهذا بشكل براغماتي مع جيراننا في القارة بما يخدم امننا الاقليمي. باختصار شديد إن الاهتمام بإفريقيا أصبح ضرورة استراتيجية لبلدنا سيما في ظل التنافس الدولي على القارة لما تملكه من موارد تجعل منها ليس فقط خزاناً حقيقياً لفرص الاستثمار بل مجالاً حيويًا لنا ينبغي تأمينه أيضا بكل الوسائل المتاحة بما فيها الدبلوماسية بصيغها المختلفة سواء رسمية أو غير رسمية.

إشكالية الورقة البحثية: تثير ورقتي البحثية تساؤلا هاما مفاده كيف يمكن تفعيل وتنشيط أداء الدبلوماسية الجزائرية بما فيها الدبلوماسية الروحية والدينية تجاه دائرتها الافريقية وهذا ضمن مسار أصبح يفرض نفسه بقوة في ظل التحولات الدولية الراهنة والتحديات التي تواجهها القارة ككل وعلى رأسها تحقيق الأمن والتنمية والازهار لشعوبها؟

2. لماذا الاهتمام بإفريقيا؟

لقد أدى التنافس الدولي على موارد وامكانات القارة أن جعل منها عرضة حتى للتدخلات العسكرية المباشرة وكذا الاختراقات غير المباشرة بهدف الهيمنة والنفوذ. وما الوجود العسكري الأجنبي وقواته وقواعده المنتشرة في مناطق متفرقة داخل القارة، وفوق المياه المحيطة بها، كالقواعد الفرنسية والأمريكية سوى تعبيرا على هذا التنافس وهو ما عبر عنه الباحث والمحلل الأمني الأمريكي (مايكل كلير) في مؤلفه (حروب مصادر الثروة) "أن أفريقيا ستكون هي الهدف، وستكون مسرحا للحروب القادمة بين القوى المتصارعة." بل ولقد

حذرت بعض المنظمات العالمية من الآثار والنتائج السلبية لتنافس المستثمرين على شراء مساحات واسعة من الأراضي الزراعية في أفريقيا، في سياق التنافس بين العديد من الدول لتحقيق أمنها الغذائي¹.

أصبح الاهتمام بإفريقيا ضرورة استراتيجية للجزائر سيما في ظل التنافس الدولي على القارة بما تملكه من موارد ما يجعل منها ليس فقط خزاناً حقيقياً لفرص الاستثمار بل مجالا حيويًا لنا ينبغي تأمينه أيضا. فالقارة تمتلك موارد معتبرة في جميع الميادين: الموارد المعدنية والنفطية، والموارد الزراعية، والموارد السمكية، وموارد الغابات، ولكن هذه الموارد لا يتم استغلالها بالشكل الذي يعود بالفائدة على بلدان القارة وهو ما يجعلها تفقد الكثير من فرص التنمية والنهوض الاقتصادي. فالموارد الأنفة الذكر تمثل مجالات استثمارية قوية، بجانب فرص أخرى متاحة في مجال بناء المنشآت الأساسية والبنى التحتية، كبناء الطرق والسكك الحديدية والمطارات والموانئ، وتوليد الكهرباء والسدود والخزانات وإمداد الماء، ومنشآت أساسية أخرى في مجال الخدمات المختلفة².

رغم الموارد وفرص الاستثمار الأنفة الذكر إلا أن دول الجوار الإفريقي لازالت تعاني من مشكلات جمة وعلى رأسها فقدان بوصلة التنمية بفعل تنامي الفساد والاستغلال الأجنبي لثرواتها وهو ما أفرز واقعا مزريا لشعوبها وهو الواقع الذي يتسم باختلالات بنيوية عميقة من أبرز مظاهرها الهجرة غير الشرعية والجريمة المنظمة بل ووفر ذلك الواقع مناخا مناسباً لتفريخ الجماعات الإرهابية والمسلحة. امتدت آثار تلك الاختلالات لتمس بلدنا الذي أصبح يواجه مخاطر وتهديدات متنامية من جواره الإفريقي وهو ما يحمي البحث عن السبل الكفيلة لمواجهتها.

3. في عدم كفاية المقاربة الأمنية وحدها

لقد ظلت المقاربة الأمنية هي الأكثر حضورا في سلوك نخبتنا الحاكمة تجاه جوارها الافريقي بفعل الازوااع غير المستقرة فيها. فقد ظلت الجزائر أسيرة مقاربتها الأمنية التقليدية. في واقع الامر تعد تكلفة عدم الانفتاح المتعدد الجوانب من قبلنا على القارة عالية وباهضة سيما من النواحي السياسية والأمنية والاقتصادية³. يكفي مثلا ان نستشهد بتجارب بلدانا بعيدة عن القارة لكنها استطاعت ان تحقق اختراقات سياسية وديبلوماسية واقتصادية متميزة فيها. لنافي التجربة الأمريكية واختراق الكيان الاسرائيلي للقارة من خلال مشاريع صغيرة امثلة حية كيف ان النشاط الاقتصادي قد يكون فعالا في التأثير على صناع القرار الأفرقة وبالتالي تأمين مصالح وتنفيذ استراتيجيات تلك الدول. يمكن تسليط الضوء أيضا على بلدان ذات اقتصاديات صاعدة تسير بنفس المنوال ومنها الصين التي وصلت استثماراتها في القارة أرقاما قياسية لدرجة دفعت بوزيرة الخارجية الامريكية السابقة هيلاري كلينتون ان وصفت تواجد هذا البلد الآسيوي في القارة كونه قوة استعمارية⁴. فحتى بلدانا مثل تركيا وبعض بلدان الخليج العربي قطعت اشواطا هامة في مجال الاستثمار والتبادل مع بلدان القارة ناهيك عن تأثيرها الدبلوماسي أيضا.

في ظل ملامح كل تلك التهديدات يكون من المنطقي ان يتم الانفتاح على جوارنا الأفريقي بشكل براغماتي ووفق مقاربة متكاملة لا تقتصر على البعد الأمني وحده بل يكون للدبلوماسية الرسمية والروحية والاقتصادية دورها كذلك وهذا بما يخدم مصالح واستراتيجيات الجزائر.

4. واقع انفتاح الجزائر على الفضاء الافريقي

بادئ ذي بدء من المفيد ان اشير أن الادوات القديمة للدبلوماسية الجزائرية تجاه القارة الافريقية التي ترتكز على ارث بريق حرب التحرير وكذا المساعدات المباشرة قد

اصابها الوهن خلال العقود القليلة الماضية. وان كانت الجزائر تحظى بعلاقات متميزة على سبيل المثال مع بعض البلدان الافريقية كجنوب افريقيا بحكم العلاقة المتينة التي ربطتهما ايام التمييز العنصري، فإنها في المقابل، ولعدة عقود، كانت بعيدة عن مناطق اخرى في القارة كغرب افريقيا اين يختفي حضورها الاقتصادي والمالي وحتى الروحي كأحد أهم دعائم دبلوماسيتها. فماعدا الشركة البترولية الكبرى في الجزائر وهي سوناطراك التي لها تجربة استثمارية في العديد من البلدان الافريقية والتي يمكنها بحكم امكانياتها الكبيرة ولوج عالم الاستثمار في افريقيا فإن القطاع الخاص الجزائري غير متواجد او متواجد بشكل مح تشم لاهتمامه اكثر بأسواق اخرى وعلى راسها السوق الأوروبية⁵.

في واقع الامر يحكم التحرك الجزائري نحو افريقيا العديد من المحددات والمحركات إذ على ضوءها يمكن فهم الدور الدبلوماسي والامني تجاه الفضاء الافريقي. فبحكم الفضاء الافريقي المأزوم والهش فإن صانع القرار الجزائري يعتبر ان الطريق نحو الشراكة الافريقية ظل إلى وقت قريب، على الأقل، يمر عبر المقاربة الامنية وليس المقاربة الروحية أو الاقتصادية وربما هذا ما يفسر محدودية العلاقات الجزائرية مع القارة الافريقية. إن تنامي الازمات والتهديدات الامنية في منطقة الساحل وفي الجوار الجزائري ككل وكذلك في ظل تنامي الهشاشة الأمنية وحتى الاقتصادية في بقية القارة سيظل الهاجس الامني القضية الاساسية للجزائر التي اصبحت حاليا منخرطة فيما يمكن ان نطلق عليه "إدارة صناعة الاستقرار في العمق الافريقي" وذلك على حساب قضايا اخرى كالالاقتصاد والتنمية في القارة. وربما هذا مايفسر كيف ان الجزائر اصبحت مزارا للوفود الامنية الواحدة تلو الاخرى فالدبلوماسية الامنية هي من يحكم ويحدد علاقات الجزائر بالعمق الافريقي. ولتجسيد هذه الدبلوماسية انتهجت الجزائر طريق ونهج الانكفاء على الذات ضمن ما يعرف في ادبيات العلوم السياسية "تأمين الامن" سيما في بيئة يحكمها عدم اليقين بفعل التهديدات الصلبة واللينة التي تحيط بها من عدة جهات والتي زادت حدتها ومداها بعد سقوط عدة انظمة في

المنطقة بفعل احداث الربيع العربي، وايضا في ضوء تنامي امكانية فشل العديد من الدول الافريقية كعدم قدرتها لبسط سلطتها وعجزها لتوفير الحد الأدنى من الخدمات وكذا انهيار شرعيتها. وعليه كثيرا ما تقدم الجزائر نفسها كداعمة وراعية للسلم في افريقيا سيما في منطقة الساحل.

تعد التكلفة المالية للجزائر وبفعل انهيار النظام الأمني في لدول المحيطة بالجزائر، وما افرضه من مخاطر وتهديدات، باهضة للغاية وهذا بهدف تأمين حدودها⁶. فالتكلفة المالية المخصصة لاستقبال اللاجئين الافارقة (حوالي 50 ألف لاجئ حاليا) تعد معتبرة، كما أن ميزانية الدفاع الجزائرية هي الاعلى من بين كل القطاعات في البلاد إذ تتجاوز أكثر من خمسة عشر بالمائة من مجموع موازنة الدولة ككل، وربما هذا ما يفسر انحسار الدور الجزائري في مجال الدبلوماسية اللينة كالاقتصاد والاستثمار وتفعيل العلاقات الروحية في القارة الافريقية. بالإضافة لذلك تجد الجزائر نفسها أمام تحدي حقيقي يواجه احد اهم مبادئ وثوابت سياستها الخارجية وهو عدم التدخل في شؤون الآخرين وكذا رفضها الرضوخ دوما للضغوطات المتعلقة بتوجيه البعض من قدراتها العسكرية خارج اقليمها وحدودها، لكن في ظل تنامي التهديدات التي تواجهها والتي تستلزم تدبيرا فعالا لمواجهةها فإن ذلك يشكل مأزقا حقيقيا لا ينفع معه سياسة المتفرج التي تطبع احيانا مواقفها، ومن هنا يكون لزاما على صناع القرار الاهتمام بتفعيل كل ما من شأنه المساهمة في تأمين مجالنا الحيوي في افريقيا ومن بين الأدوات التي يمكن ان يساهم في ذلك توظيف دبلوماسيةنا الروحية بحكم جدواها وأهميتها.

5. في أهمية الدبلوماسية الروحية تجاه افريقيا

ترتبط الجزائر بافريقيا روابط كثيرة تاريخية دينية امنية سياسية. ويعد البعد أو المحدد الحضاري مهما جد يمكن توظيفه بشكل يسمح بتمتين العلاقات البينية أي بين الجزائر وافريقيا سيما دول الجوار. ففي ظل الانكشافات الأمنية لبلدنا وهذا بفعل شساعة حدودنا

وتعدد التهديدات والمخاطر المحدقة بنا يكون من الاجدر الاهتمام بكل ما من شأنه ان يساهم في تعزيز امننا وامن المنطقة ككل. ويعد الأمن الديني جزءا لا يتجزأ من الامن العام لدولتنا.

تاريخيا مثل البعد الديني نقطة ارتكاز مهمة في تحصين المنطقة من خلال مقاومة المستعمر الغربي اذا ساهمت الطرق الصوفية كثيرا في مقاومة هذا المحتل من خلال تفعيلها لفريضة الجهاد. تعد كلا من الطرق الصوفية والزوايا مرجعية دينية لها بصمتها على التاريخ المشترك بين الجزائر وعمقها الافريقي ككل⁷.

تعد تحديات كثيرة في افريقيا إذ أن حجم هذه التحديات يستدعي إعادة الانتشار سيما على مستوى المناطق والدوائر الجيوسياسية للأمن القومي الجزائري، كما أن حجمها يستدعي أيضا إعادة ترتيب الأولويات سواء على مستوى التوجهات السياسية او الاقتصادية او الأمنية او حتى الروحية او على مستوى الآليات التي يمكن الاعتماد عليها لتحقيق اهدافنا. في واقع الأمر يصعب حصر أهمية الدبلوماسية الدينية تجاه جوارنا الافريقي في جانب واحد إذ أن حضور الدبلوماسية الدينية وتفعيلها يعد ذات أهمية من عدة جوانب:

_ مواجهة الإسلام الذي يدافع عن الأطروحات التي لا تتوافق ومصالح الجزائر بل وتهدد امنها.

_ تحسين صورة الإسلام في المنطقة سيما وانا تنامي ظاهرة الإرهاب والنزعة الانتقامية افقدت للإسلام صفة التسامح التي تعد خاصية جوهرية له.

_ وضع حد للجماعات التي تستخدم الدين لبلوغ أهدافها المنحرفة.

_ مواجهة تأثير الكثير من القوى الإقليمية التي تعمل جاهدة للهيمنة على المنطقة روحيا بغية تمرير أهدافها واستراتيجيتها.

_ المساهمة في تامين المد الاستراتيجي للجزائر في الدائرة الافريقية.

— المساهمة في حلحلة العديد من الازمات والصراعات في المنطقة بحكم وجودها وامتدادها القوي سيما في الكاميرون، السينغال، النيجر ومالي.

— تقويض تغلغل القوى المعادية للجزائر ومنها بالخصوص تغلغل الكيان الصهيوني المغتصب والذي لا يتوقف عن تقديم الوعود للبلدان الافريقية في ميادين مختلفة وكثيرة كبرامج التجسس والحصول على الأسلحة ومساعدتها تكنولوجيا سيما في ميدان الزراعة والمياه.

6. دعائم الاستثمار في الدبلوماسية الروحية

يمكن الاستثمار في عدة جوانب لخدمة دبلوماسية دينية، وضمن هذا السياق يمكن ذكر الدور المحوري الذي تضطلع به الطرق الصوفية والتي تتمتع بامتداد جزائري افريقي وترتبط شعوب المنطقة ككل بصلات روحية وعقائدية متينة.

يعد الموقع الجغرافي للجزائر بالغ الأهمية ويمنع لها خاصية إضافية وهي خاصية الاستثمار فيما يمكن ان اسميه بالتميز الجغرافي. فالصحراء الواسعة الجزائرية يمكن ان تكون عاملا ايجابيا في تمتين العلاقة بين مريدي الطرق الصوفية لما يوفره هذا الامتياز الجغرافي الصحراوي من فضاء للسكنية والهدوء الذي يخدم فلسفة وتوجهات الطرق الصوفية في المنطقة. من بين الطرق الصوفية التي لها امتداد داخل الجزائر نجد الطريقة التيجانية والرحمانية (طبعاً هناك طرق مشرقية كالقادرية وكذا مغربية كالشاذلية) والتي تتفرع عنها طرق عديدة.

إضافة لما سبق لا يمكن ان نغفل جانباً هاماً ويتعلق بطبيعة المجتمع الافريقي القبلي، فإن وجود قيادات قبلية ودينية لها امتدادات في الجنوب الجزائري يمكن الاستثمار فيها أكثر لخدمة اهداف سياستنا الخارجية.

7. هامشية الاستثمار في الديبلوماسية الروحية

للأسف لا يزال الاستثمار وكذا توظيف البعد الروحي متواضعا لدينا مقارنة بما هو موجود في دول الجوار اين تعد هذه الديبلوماسية من بين الأسلحة التي يتم توظيفها لتمتين العلاقات البينية بينها وبين بقية البلدان الافريقية. فتأمين المصالح السياسية والاقتصادية يتم خدمته من خلال تمتين الروابط الروحية بحكم العلاقة التي تربط البلدان المغاربية بافريقيا سيما في المنطقة الغربية منها.

يمكن القول أن تفعيل الديبلوماسية الروحية كجانب مهم في ديبلوماسيتنا بشكل عام لم يحظ بما يكفي من الاهتمام وهذا على الرغم من أنه على المستوى الداخلي شهدت الجزائر انفتاحا لافتا على الزوايا والطرق الصوفية خلال فترة حكم الرئيس الراحل عبد العزيز بوتفليقة أين لاقت دعما ملحوظا، وعليه لا يمكن انكار بعض المجهود الذي قام به الراحل والذي انعش نشاط الزوايا والطرق الصوفية لأهداف وغايات متنوعة بما في ذلك الغايات الانتخابية.

رغم كون الجزائر قامت من الناحية القانونية بهيكله الزوايا مثلا وفق قانون الجمعيات لسنة 1990 (قانون 06/90) وهذا بهدف تنظيم نشاطها وكذا تسهيل مراقبتها من قبل مصالح الدولة، لكن ترجمة الهيكله القانونية إلى نشاط وحركة ديناميكية لم يكن بالمستوى المطلوب. فما عدا فترة حكم بوتفليقة التي سمح للزوايا بالنشاط اكثر من خلال سياسة جديدة للدولة هدفت لرأب الصدع المذهبي داخل هذه الزوايا وتقريب وجهات نظر بعضها البعض فإن تفعيل دورها سيما خارجيا ظل متواضعا، لعل من أبرز الجهود التي عرفتها فتره حكم بوتفليقة فيما يتعلق بتفعيل دور الزوايا والطرق الصوفية داخليا نجد تاسيسه للزاوية البلقادية الهبرية بالعاصمة قصد استقطاب العديد من العلماء والفعاليات الدينية في الجزائر وهذا بهدف جعلها كمنارة علمية لها تأثيرها. بالإضافة لذلك تم استحداث منصب

مستشار لدى رئيس الجمهورية مكلف بالزوايا، لقد شهدت نفس الفترة انفتاحا اعلاميا على الطرق الصوفية وعلمائها، كما تم عقد العديد من الملتقيات لعل أشهرها ملتقى الطريقة القادرية بورقلة وملتقى الطريقة التيجانية بوادي سوف.

يبقى، ومع كل ماسبق، أن الاهتمام بإعطاء الديبلوماسية الروحية ما تستحقه من اهتمام لايزال متواضعا رغم أن الزوايا والطرق الصوفية كمرجعية دينية لطالما أدت وظائف كثيرة على امتداد تاريخ الجزائر سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي.

في واقع الامر فإن الوظائف التي أدتها الزوايا والطرق الصوفية في الماضي لا ينبغي ان يحجب أهميتها في وقتنا الراهن بل وحتى مستقبلا، فحضورها الان أصبح ضرورة ملحة إذ لطالما استغلت الجماعات الدينية المتطرفة الشباب الافريقي لتحقيق أهدافها وعليه يجدر التركيز على هذه الفئة من خلال منحها التعليم والتدريب وغرس القيم الدينية الصحيحة عندها، ولتحقيق هذا المسعى يمكن للإسلام المعتدل بما فيه الإسلام الصوفي ان يساهم في ذلك. كما يمكن ان تستثمر الجزائر في العديد من الجوانب ضمن هذا الإطار مثل فتح معاهد ومدارس تستقطب طلبة من البلدان الافريقية وهذا بهدف نشر قيم الدين الإسلامي السمحة على غرار ما تقوم به بعض البلدان الإسلامية والتي يعد بعضها رائدا في هذا المجال رغم بعدها الجغرافي عنا، لدرجة ان هناك من تلك البلدان من اقترحت التفكير في انشاء رابطة علماء إفريقيا استثناسا برابطة علماء المسلمين. لا يمكن ان نغفل أيضا الجانب المهم المتمثل في دعم الديبلوماسية الروحية بالاستثمار اقتصاديا في البلدان الافريقية سيما مناطق الظل التي تعاني من غياب التنمية والتعليم.

8. حتمية الاستعانة بدعم جهود الديبلوماسية الروحية في افريقيا من خلال الاستثمار في مجال الاقتصاد والتنمية

من المهم ان نشير أيضا أن الانفتاح الاقتصادي على افريقيا يستوجب إصلاحا عميقا للمنظومة الاقتصادية والمصرفية في الجزائر إذ لا يمكن لبلد ذو منظومة مصرفية من العهد السوفياتي وقانون صرف قمعي وغير واقعي أن يلج عالم التجارة الدولية تحت تهديد النصوص وسطوة الإدارة لمنافسة دول جعلت المؤسسة الاقتصادية مركز المنظومة التسييرية، بينما لا تمثل الإدارة إلا أداة إسناد لها. فحتى مستوى النخب الاقتصادية الافريقية تطور ولا بد من مجاراته فهذه النخب تتحدث الان عن قضايا ومفاهيم جديدة كالحاكمية المتعددة الاطراف والتفاوض للتبادل الجهوي الحر والهندسة المالية واختيار المشاريع والتحولات الرقمية.

رغم التصريحات الحكومية في السنوات الاخيرة والتي ترى بأن مستقبل الجزائر الاقتصادي أصبح مرتبطا بالانفتاح على إفريقيا على اعتبار ما تزخر به القارة من إمكانيات مادية وبشرية ضخمة أين تبحث الجزائر على إيجاد بدائل لدعم الخزينة العمومية، إضافة إلى فتح أسواق جديدة للمنتجات الجزائرية في البلدان الإفريقية التي تمثل أكثرها استهلاكاً وأقلها إنتاجية وكذا الاستفادة من المزايا التي توفرها القارة الإفريقية، لكن ما تم من خطوات ضمن هذا الاتجاه تبقى محتشمة. فماعدا بعض المشاريع القليلة والتي لم يتم تجسيدها بعد فإن مستوى العلاقات الجزائرية الافريقية في ميدان الاقتصاد والاستثمار يظل متواضعا لحد الساعة. فالجزائر تنتظرها تحديات كبرى للانفتاح على القارة الافريقية نظرا لضعف المبادلات، إذ تمثل 1.5 في المئة فقط من مجموع التجارة الخارجية، ناهيك عن عدم وجود آليات لمرافقة المؤسسة الجزائرية الراغبة في الاستثمار في افريقيا كالبنوك والنقل الجوي.

من بين المشاريع التي تراهن عليها الجزائر ضمن انفتاحها الافريقي مشروع ميناء شرشال المبرمج للإنجاز ومخصص لربط الشمال بالجنوب الجزائري، إذ سيسمح بتخزين وإعادة شحن السلع ونقلها برا عبر الطريق السيار شمال - جنوب الذي هو في طور الإنجاز ايضا، انطلاقا من عدة موانئ جافة، ليتم بعدها توصيل السلع والصادرات إلى دول الجوار الإفريقي في حدود اسبوع إلى عشرة ايام، وبتكلفة مادية وزمنية للنقل أقل بكثير من نقل تلك السلع بحرا. وبحسب التصريحات الرسمية فأن الميناء سيستقبل أكثر من ٢٧,٥ مليون طن من السلع سنويا، مما سيوسع الوعاء التجاري للجزائر ويمكنها من فتح باب التصدير للدول الإفريقية، ولهذا الغرض سيتم إنشاء أربع مناطق صناعية لتنشيط الاقتصاد ومنطقة لوجستية تابعة للميناء لتخزين السلع والمساهمة في توسيع الطاقة الاستيعابية للميناء.

المشروع الآخر الذي تراهن عليه السلطات الجزائرية يتمثل في انشاء قاعدة لوجستية بتمنراست موجهة للتصدير على مساحة تقدر بحوالي 500 هكتار ومجهزة بكل المرافق والمخازن وتوسيع مطار تمنراست كبوابة على افريقيا.

من بين المشاريع الأخرى التي تراهن عليها الجزائر مشروع ربط العديد من البلدان الافريقية بكوابل الاليف البصرية (الانترنت) اين تم توصيل الكابل للحدود الجزائرية المالية لكن العوائق الامنية صعبت الى حد ما اتمام هذا المشروع في آجاله وهو المشروع الذي انطلق سنة 2003. وبحسب المسؤولين في وزارة الاتصالات الجزائرية فإن المشروع من شأنه مساعدة سكان العديد من بلدان الساحل ووسط افريقيا على الربط بالانترنت، خاصة وأن نسبة دخول الانترنت للقارة ككل لا تتعدى ثلاثة بالمئة. كما سيعمل على بعث الاقتصاد الجزائري سيما وأنه سيفتح المجال للقطاع الخاص للمساهمة في تجسيده⁸.

في واقع الأمر تدخل مبادرة ربط القارة بشبكة الانترنت في إطار الشراكة الجديدة من أجل تنمية أفريقيا (نيباد)، وتتعلق بمشروع إنجاز وصلة ربط بالألياف البصرية بين

الجزائر (الجزائر) وزيندر (النيجر) وأبوجا (نيجيريا). بحيث سيسمح هذا المشروع بحسب تصريحات السلطات الجزائرية على:

- توفير بنية تحتية لنقل تكنولوجيات الإعلام والاتصال عصرية ومتينة لسكان البلدان الثلاث والبلدان المجاورة.

- توحيد الحركة الجهوية، بما في ذلك البلدان المجاورة المعزولة مثل المالي والتشاد والبنين والطوقو، من أجل ايصالها لأوروبا عن طريق الكوابل البحرية للألياف البصرية المتواجدة حاليا.

وتلك الجاري تركيبها بالجزائر.

ستسمح هذه البنية التحتية الاستراتيجية التي تمتد على طول 4500 كم تقريبا والتي يتواجد نصفها في الأراضي الجزائرية (الجزائر-عين قزام)، ببناء شبكة إقليمية للمعلومات تربط بين العديد من البلدان الأفريقية.

رغم ضآلة حجم الاستثمارات الجزائرية في افريقيا لكن هناك توجه نحو التصدير للأسواق الأفريقية خلال السنوات الاخيرة حيث بدأت الجزائر في تصدير العديد من المواد للدول الأفريقية على غرار الاسمنت لكل من النيجر (من منتج خاص بادرار وبر) وكذلك لدولة غامبيا. تعمل السلطات ايضا على فتح مجال النقل الجوي للبضائع للخواص لتسهيل اوصول المنتج الجزائري لإفريقيا، سيما وأن بعض الخواص تمكنوا من اقتحام بعض الاسواق الأفريقية في السينغال وكوت ديفوار والبنين على غرار شركة كوندور وشركة ‘بي أن أس‘ ‘للأدوات والأكسيسوارات الكهربائية وشركة سيستام للإلكترونيات وشركات أخرى لصناعة الكوابل التنافسية⁹.

التصريحات الرسمية الجزائرية تجاه التعاون الافريقي واعدة وعلى راسها الدعوة للتكامل بين دول الاتحاد الافريقي خصوصا ضمن ما يعرف تكثيف جهود الدول الافريقية من أجل استكمال استحداث المنطقة القارية للتبادل الحر وتحقيق التكامل بالقارة الافريقية لمواجهة التكتلات الدولية الأخرى¹⁰. تبقى تلك التصريحات غير واقعية كون تجسيد استحداث منطقة تبادل حر على سبيل المثال ستواجه تحديا يتمثل في انتماء عدد من الدول الافريقية إلى تكتلات اقتصادية إقليمية عديدة في آن واحد، وهو ما يستلزم مسارا تفاوضيا عسيرا من أجل إنشاء هذه المنطقة لتقويم الكثير من الاختلالات الهيكلية في التكتلات الاقتصادية الإقليمية في القارة الافريقية.

يراهن المسؤولون الجزائريون وفي سياق تنشيط التعاون الافريقي على الصناديق الافريقية لتمويل المشاريع بل وبعد جفاف البحوث المالية يتم الحديث حاليا حول امكانية توفير الاموال للاستثمارات الجزائرية من افريقيا من خلال اللجوء إلى دول صديقة لتمويل مشاريع وفق طرق شراكة ثلاثية، أي صفقات بين الجزائر والدولة الإفريقية ودولة ثالثة تدخل برأس المال، كما يمكن الاعتماد في مجال التمويل على مؤسسات وصناديق مالية إفريقية.

حتى المبادرة الافريقية الأخيرة والتي ساهمت فيها الجزائر بقسط كبير والمتعلقة بإطلاق أكبر منطقة للتبادل الحر في العالم لتنشيط حركية اقتصاديات الافريقية وفتح فرص للتبادل الحر والتي تم الاعلان عنها خلال القمة الاستثنائية للاتحاد الافريقي في 21 مارس 2018 بكيغالي (رواندا) فإن أفاقها ستبقى غير واعدة رغم تأكيد المسؤولين في الجزائر أنها ستمنح امتيازات متنوعة على غرار الاستفادة من اللامركزية وكذا المقاييس الجديدة في التعاون التجاري والمالي والاقتصادي بين البلدان الافريقية.

رغم التصريحات المتفائلة الأنفة الذكر فإن اتفاق التبادل الحر الذي امضته حوالي 43 دولة افريقية سيبقى إعلانا للنوايا أو مشروع مستقبلي أكثر منه واقعا عمليا بفعل العديد

من المعوقات التي ستواجهه ومنها أن الدول الافريقية ستظل متقيدة بالمبادئ المتعلقة بحماية منتوجها الوطني، وهو ما يقف عقبة أمام التبادل الحر. فمعظم هذه البلدان تشترط الحفاظ على منتوجها الوطني، أو دعم منتجات بعينها، أو الالتزام بمعايير صناعية أو بيئية مكلفة للمنتجين. ومن هذا المنطلق فإن الاتفاقيات التجارية الأفريقية الجديدة ستظل مثل الاتفاقيات القديمة، مثقلة بالبنود التي تحمل العديد من القيود تحت مسميات عدة. فالاتفاق الأخير هو أقرب لأوراق جرى التوقيع عليها من قبل الزعماء، وتحتاج إلى اتفاقيات وإجراءات أخرى تشرح كيفية تطبيقها وهو ما لن يكون متاحا في المستقبل المنظور. ومن هنا يمكن القول فإن الخطوة الافريقية الأخيرة لن تعود بالنفع على الاقتصاد الجزائري أو اقتصاد دول افريقية أخرى.

9. خاتمة

نصل في ختام هذا البحث إلى تثبيت عدة نتائج ومنها أن افريقيا تعد فضاء جيوسياسيا فائق الأهمية بالنسبة للجزائر. ففي ظل سعي الكثير من القوى الخارجية كالولايات المتحدة والصين وتركيا التواجد في القارة. للجزائر مؤهلات أفضل للولوج الى القارة ابتداء من الجغرافيا مروراً بالتاريخ ووصولاً للروحانيات وغيرها. يتعين على الجزائر والتي تربطها علاقة عضوية مع بقية القارة ان تنتهج مقاربة أكثر فعالية وأكثر نشاطا في دائرتها الافريقية سواء بهدف تحجيم الكثير من الاخطار المحدقة بها بفعل التنافس الدولي على موارد القارة أو الانخراط في علاقات اقتصادية من خلال تنشيط دبلوماسيةها بما يخدم مصالحها سواء على المدى القريب او البعيد. فانتشار المذهب المالكي المعتدل في القارة يمكن ان يكون مدخلا مهما لممارسة القوة الناعمة هذا دون ان ننسى الامتداد التاريخي لزوايا وطرق صوفية معروفة وجد فعالة في القارة (كالطريقة التيجانية والقادرية والبالقايدية) والي تتمتع بتأثير واسع وتواجد لمريديها في دوايب صناعة القرار في عدة بلدان افريقية.

فالدور التعليمي لهذه الطرق سيساهم بشكل فعال ومن خلال الارسلات التعليمية للافارقة في الجزائر من دعم الدبلوماسية الروحية والدينية الجزائرية في القارة. ضرورة الخروج من المقاربة التقليدية سياسية امنية الى ما يمكن ان نسميه بالقوم الناعمة التي تشمل الدبلوماسية الروحية.

تعزيز الروابط مع الدول الافريقية ينبغي ان لا يقتصر على المقاربة السياسية التي تعد متميزة سواء على المستوى الثنائي او مستوى متعدد الأطراف وهذا منذ استقلال الجزائر ودفاعها الدائم في حق الشعوب في الحرية والكرامة. كما ينبغي ان لا يقتصر على المقاربة الاقتصادية وحدها وعلى هامشيتها. صحيح ان الروابط الاقتصادية لها مفعولها وعليه انخرطت الجزائر في تميّز العلاقات الاقتصادية (تطوير شبكة تجارية واقتصادية) ابتداء من نشاطها في صياغة رؤية "النبياد" اذ انه من المعروف ان لسونطراك (الشركة البترولية الوطنية الجزائرية) نشاط حثيث في القارة ابتداء من مالي الي أمضت معها اتفاقيات تنقيب عن البترول ابتداء من سنة 2007 هذا دون ان ننسى المعونات المالية التي تقدمها الجزائر للعديد من البلدان الافريقية لدرجة مسح بعض الديون العالقة على عاتق هذه الدول. كما انه ينبغي ان لا نكتفي باعتماد المقاربة الأمنية لوحدها وعلى أهميتها أين تقوم فيها الجزائر بدور نشيط ابتداء من رعايتها لما يعرف "استراتيجية دول الميدان" التي تضم كل من النيجر ومالي وموريتانيا أو تعاونها الأمني مع الولايات المتحدة في مكافحة الإرهاب في منطقة الساحل. بالمختصر المفيد فإن الخروج من المقاربة التقليدية السياسية الأمنية الى ما يمكن ان نسميه بالقوة الناعمة التي تشمل الدبلوماسية الروحية تجاه جوارنا الافريقي أصبح حتمية لا يمكن التغاضي عنها.

10 . الهوامش والمراجع

¹ محمد المختار (2009). "الاستثمار في إفريقيا: آمال وتحديات" في قراءات إفريقية، العدد 04. سبتمبر. ص.ص. 05-12.

² Backett J., Sudarkasa M. (2020). Investing in Africa: An insider's Guide to the Ultimate Emerging Market. New Jersey. Wiley Publications. p.05.

³ راجع لمزيد من التفاصيل: لؤي عبد الفتاح وزين العابدين حمزاوي (2016). الدول المغاربية وتحدي الأخطار عبر الوطنية: قراءة في اختيارات التعاون الأمني. ورقة قدمت في أشغال الندوة الدولية التي نظمت بتاريخ 20 و 21 أفريل 2016 بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بجامعة محمد الأول، وجدة. المملكة المغربية. ص.ص 282-308.

⁴ Smith D. (2012). Hillary Clinton Launches African Tour With Veiled Attack on China. The Guardian. August 1st. <https://www.theguardian.com/world/2012/Aug./01/Hillary-Clinton-Africa-china> Site visited on 19th, Oct 2022.

⁵ عبد الحميد حذاقة (2023). تخصيص مليار دولار لتتمية إفريقيا: ماذا تستفيد الجزائر وما أولوياتها". الجزيرة نت، فيفري. تم تصفح الموقع في أفريل 2023.

⁶ عباسي محمد الحبيب (2017). الجريمة المنظمة العابرة للحدود. أطروحة دكتوراه. جامعة تلمسان. 2017/2013، ص 53.

⁷ للمزيد من التفاصيل راجع كتاب مازن شريف (2017). التصوف في المغرب العربي وإفريقيا: إطاره وغاياته. المنستير (تونس) دار الثقافية للنشر والتوزيع.

⁸ See from more details : Laurent de Saint Perier (2017). Algérie-Afrique : A la Recherche du Temps Perdu. in Jeune Afrique. 19 Janvier 2017.

⁹ Djama Y. (2019). L'Afrique : Une Nouvelle Cible pour les Exportations Algériennes. in Maghreb Emergent. Edition du 3 novembre 2019.

¹⁰ Nations Unis, Commission Economique pour l'Afrique « La Zone de Libre-Echange Continentale Africaine : Questions et Réponses » <https://www.uneca.org/fr/publications/la-zone-de-libre-%C3%A9change-continentale-africaine-questions-et-r%C3%A9ponses>. Site Visited on October 04th, 2022.